الفصل السادس والأربعون

أوصاف نهر النيل المبارك وهو ماء الرحمة

ليكن معلوما لدى الأخوة من السياح والرحالة أن الأقوال تضاربت كثيرا فيما يختص بالأنهار الجارية على وجه الأرض.

يقول عوفى عن ابن العباس رضى الله عنه: «إن على وجه الأرض عيون وجداول بقدر ما فى بدن الإنسان من شرايين».

وعلى حد قول بطليموس الحكيم على وجه الأرض مائتا نهر عظيم وأربع وأربعون ألف عين جارية. وهذه الأنهار لا يزيد الواحد منها على ألف فرسخ ولا يقل عن خمسين. ومن بين مائتى نهر عظيم أربعة عظيمة يمدحها الله والناس. أما أعظمها فالنيل المبارك وقد ذكره الله فى كتابه العزيز ست عشر مرة تصريحا وتنزيها. يقول تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]. وقد فسر المفسرون هذه الآية أن المقصود بها أرض مصر ونهر النيل.

وفى آية شريفة أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. وقيل إن المراد بذلك أرض مصر ونهر النيل. وكم من آيات جاءت بشأن النيل.

كما وردت أحاديث نبوية كثيرة خاصة بالنيل. يقول المصطفى ﷺ: «سيحون وجيحون والنيل والفرات كلها من أنهار الجَنَّة» أخرجه مسلم منفردا بذلك[1].

وهناك أحاديث أخرى كثيرة إلا أننى اكتفيت بهذا القدر.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب صفة الجنة والنار (١١) باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة حديث رقم (٧٠٢)، ولفظه: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة». قال شارحه: سيحان وجيحان نهران بالعواصم عند المصيصة وطرسوس، وهما غير سيحون وجيحون. وخطأ من قال من الشراح أنهما سيحون وجيحون اللذان ببلاد خراسان. وذكر مسلم فى كتاب الإيمان فى حديث الإسراء أن الفرات والنيل يخرجان من الجنة. وفى البخارى من أصل سدرة المنتهى.

أما نهر النيل فبتقدير العلى القدير وعلى حد قول بطليموس الحكيم فينبع من جبل القمر فى جنوب مصر من مسافة تقطع فى سبعة أشهر. ومنبعه اثنتا عشرة عيناً عظيمة، وهذه العيون الاثنتى عشرة تقع جنوب خط الاستواء، وتصب فى بحيرة عظيمة كأنها البحر الخضم، ويتفرع النيل من هذه البحيرة ويمر هذا الفرع فى شمال الإقليم الأول والإقليم الثانى حيث ولايات قرمانقه، وققان، وبلاد الفونج، وبلاد البربر، والنوبة، وصاى فى أقصى حدود مصر الجنوبية حيث القلعة العظيمة التى يحرسها جند من الأوجاقات السبعة فى مصر وذلك بمسيرة شهرين يعبرها النيل ويخترق مدينة جرجا، وولاية إسنا وأسوان ثم يمر من مدن المنشية طهطا وأبى تيج وأسيوط ومنفلوط، وصنبو، والمنيا، والفشن، وبنى سويف، ويستغرق ذلك شهرا إلى أن يبلغ مصر أم الدنيا، وعلى بعد خمسة أميال من مدينة القاهرة وفى الموضع الذى يسمى «بطن البقر».

أهم المدن الواقعة على فرع دمياط

أولا مدينة ميت غمر فى كشوفية المنصورة، وقبالتها قصبة زفته فى أرض الغربية، ومدينة المنصورة شرق النيل، وقصبة سمنود فى الغربية، ومدينة فراسكور شرق مدينة المنصورة، ثم مدينة دمياط وهى ميناء عظيم فى الجهة الشرقية من ضفة النيل. ثم يبلغ النيل موضعا يسمى «مَرَج البحرين» حيث يصب فى البحر الأبيض وتختلط مياههما.

المدن التى يمر بها فرع دمياط بعد تفرعه من «بطن البقر»

أولها محلة طنوب، ومحلة بشير، ومحلة أبى على، وتقع هذه القرى فى أرض الغربية وكذلك محلة مالك، ومحلة مطوبس، ومحلة الأمير على، ومدينة رشيد التى تقع فى أرض البحيرة. ويعبر النيل رشيد وتختلط مياهه بالبحر الأبيض فى الموضع الذى يسمى «مرج البحرين».

وهذه المدن السالف ذكرها تقع على جانبى نهر النيل وعددها مائة وستون مدينة. وحتى قلعة صاى وبمسيرة ثلاثة أشهر تقع ألف وثمانمائة قرية معمورة جميلة، أما عدد القرى الواقعة على ضفتى النيل فالله أعلم بعددها الحقيقى.

وبحساب الفرسخ فإن طول النيل من منبعه حتى مصبه فى البحر الأبيض يبلغ ثلاثة آلاف فرسخ.

ويتفرع النيل تسعة أفرع، وكل فرع منه يتجه غربا حيث ممالك السودان وفاس ومراكش، بيد أننى لم أبلغ تلك الجهات. إلا أننى بلغت الأماكن الواقعة فى المنطقة الاستوائية جنوب النيل عند خط عرض ٢ درجة وخط طول ١، وسوف أكتب عنها تفصيلا عند الحديث عن سياحتى فى بلاد الفونج. ومن عجب أن تكون سياحتى هى سيرتى.

والأفرع التسعة للنيل التى تجرى غربا فى ممالك فاس ومراكش طولها جميعا ألف فرسخ وتصب فى المحيط، وسألت عن ذلك بعض الأشخاص الذين بلغوا بلاد الفونج، فقالوا إن التمساح لا يوجد فى تلك الجهات من نهر النيل.

وفى عهد خلافة السلطان المؤيد مضى بعض التجار إلى منبع النيل مرارا، وكانوا يصلون إلى هناك فى ثمانية أشهر واشتروا سلعا من هناك وعادوا. وأهل بلاد الفونج (فونجستان) يبلغونه فى أربعة أو خمسة أشهر، ويبيعون سلعهم للبرتغاليين والفرنجة ثم يعودون إلى فونجستان كذلك فى أربعة أو خمسة أشهر.

ولأن ملك فونسجتان هذه على مذهب الإمام مالك، فهو راسخ الاعتقاد فى الشيخ البكرى فى مصر، ويزوره رجاله على الدوام.

وبناء على هذه الآصرة يرسل ملك فونجستان إلى الباشا فى مصر سفراءه حاملين الهدايا من تروس من جلد الفيل وسن الفيل وقرون وحيد القرن وجلد الضب وخشب الأبانوس والزباد. وشعب الفونج يستوطن ساحل النيل، غير أن ساحل النيل فى تلك البلاد قليل العمران. لأنهم قوم كثيرو الترحال.

أما المناطق المستبحرة العمران فتمتد من قلعة الصاى ومدينة در وقلعة إبريم وولاية الشلال، وأسوان، وإسنا، ومدينة قوص، ومدينة قنا، وتوره، وجرجا وبقية المدن سالفة الذكر حتى مدينة القاهرة ومدن دمياط ورشيد. وهذه المدن جميعا واقعة على ضفتى نهر النيل.

وقد وردت أماكن العمران فى مصر وتضاريسها برا وبحراً فى كتب الهيئة لبابا مونطه وأطلس ومينور وفى تواريخ الخطط.

ذكر الميزات الحسنة لمصر

لقد قمت بسياحتى ولم أذكر إلا ما تأكدت منه اعتقادا جازما.

ويفيض النيل المبارك وتجرى مياهه فى ٧٠٠٠ خليج، و١١٠٠٠ ترعة فى مصر وسوف أذكر كلا منها فى حينه بمشيئة الله تعالى، وتجرى مياه النيل فى تلك الترع وتروى أراضى مصر الزراعية. والمطر لا يهطل فى إقليم مصر إلا مرة أو مرتين فى العام. وما لم يفض النيل والعياذ بالله وقع القحط وغلت الأسعار، ومن هنا كان سر الاحتفاء بقطع النيل وفرط السرور به. ولولا النيل لكانت مصر جزيرة قاحلة.

وإذا ما جاء النيل على ما يرام أصبحت جميع ولايات مصر بحرا. والقرى فى مصر سواء كانت أوقافا لمكة والمدينة أو كشوفية أو تابعة لملتزم أو أمين والقصبات والمحلات والكفور فعددها ( )[1] وجميعها تقع على أرض مرتفعة وكأن كلا منها جزيرة داخل النيل الذى يشبه البحر وتبقى النخلات مرتفعة الرأس فى ماء النيل.

وقد أقيمت مملكة مصر وفق علم الهندسة لأن بين كل قرية وأخرى مسافة يسمونها «ملاقى»، وحيثما يطغى النيل على تلك الوديان أقاموا جسوراً من التراب للمضى من قرية إلى قرية. والسد منها يرتفع بمقدار خمس أو عشرة قامات، وحينما يفيض النيل يعبر الناس على هذه الجسور بخيلهم وحمرهم، وإذا ما بلغ النيل هذه السدود وامتلأت به روى الأرض عشرة أيام، بعد ذلك تفتح هذه السدود ويجرى النيل إلى واد آخر وتصبح مياهه وكأنها البحر ويروى أرض بلد آخر، وتلافيا لوقوع النزاع بين الناس على ماء النيل يرسل الحاكم طائفة من جنوده مدججين بالسلاح لإجراء ماء النيل من قرية إلى أخرى لريها، وما لم يوجد أحد من قِبَل الحاكم نشب القتال بين البدو والفلاحين.

وفى بعض الجهات قناطر أو جسور يجرى النيل من تحتها. ويسمون النيل إذا دخل قرية ترعة كذلك، ويجرى ماء النيل فى هذه الترع ويروى أراضى الولايات .

وأرض مصر كلها فروع من النيل وخلجان وترع وبرك شقها مهندسو الكهنة بفضل تعاليم النبى إدريس عليه السلام. وهذا كله ما يستحق المشاهدة.

(١) بياض فى الأصل.

وعند قطع النيل فى رأس العام الحالى وفى السنة الماضية تسلم جميع الكاشفين والأمناء والملتزمين المحاصيل من القرى بتمامها، وعندما سلموها زالت عنهم سلطتهم وصلاحيتهم وعين مكانهم نائب، ثم عين لكل كاشف أغا لدى الباشا. وعندما دعى جميع الكاشفين للحضور فى ديوان مصر أهدى كل أغا قدم على الكاشفين أربع آلاف پاره وجوادًا مُطَهَمًا وإذا كانوا قد أعطوا أكثر من ذلك فهو كرم من الكاشفين.

وعزل الكاشفين فى رأس السنة القبطية، وبذلك اليوم يبدأ الاحتفال بمولد السيد البدوى الذى يدوم خمسة عشر يوما بلياليها وسط جو من الصخب والضجيج. إنه مولد جد عظيم، بالمشاهدة حقيق.

وإذا ما أفلس أحد الكاشفين أو الأمناء أو الملتزمين فر من الأغا الذى جاء لاستدعائه بأمر الباشا ولجأ إلى تكية أحمد البدوى معتصما بها. ولو قدم الملك بنفسه للقبض عليه لما استطاع إلى ذلك سبيلا. وإذا ما حاول أحد إخراج هذا الرجل من التكية بالقوة شُلَّ ساعده. ومن فى هذه التكية من علماء وشيوخ ومتصوفة، لا يسلمون لصًا ولا مفلسًا ولا قاتلا، إلا أنهم يطيعون أولى الأمر من الحكام. أما الكاشف الشريف فيذهب إلى الديوان، ويحاسب ويدفع ما فى ذمته من مال السلطان ويحظى بخلعة.

ذكر الأفعال الشائنة فى مصر

أما من أفلس من الكاشفين طُرح فى سجن ديوان الغورى، وتعرض لعذاب مُهين يندى له جبين من غلب على طبعهم الحياء، ويهلكون خجلا من قبح ما يتعرض له الكاشف المفلس من عذاب. ويباع كل ما يملكه فى المزاد ويخلو وفاضه. وإذا ما أدركَت الوزير الرحمة له، خلع عليه خِلعة فى العام المقبل وأعاده إلى منصبه، فيطيب خاطره.

وتصبح الولاية كأنها بحر طيلة ستة أشهر بتمامها بسبب قطع النيل، ولا يستطيع الكاشفون مباشرة أعمالهم طيلة ستة أشهر بتمامها، ويرسلون من ينوب عنهم يعاونه خمسمائة أو ستمائة رجل بسفنهم.

وفى ذلك الوقت يكون الفلاحون وكأنهم تنين ذو سبعة رءوس ويقعدون عن العمل ولا مال لهم من الأرض التى زرعت. فيركب مجرموهم سفنهم وينتقلون من ولاية إلى

أخرى مُغيرين سالبين ناهبين.

وبما أن الكاشف ليس له جند من الأوجاقات السبعة، لا يخشى الفلاحون من نائب وتثور ثائرتهم ويثأر بعضهم من بعض لعدم وجود من يخضعهم من الحكام.

وهؤلاء الفلاحون والبدو، منذ عهد قابيل وهابيل ابنى آدم - عليه السلام - طائفتان؛ طائفة «بنى الحرام» وهم شجعان وهم ذرية قابيل. وطائفة أخرى تسمى «بنى جذام» وهم ذرية هابيل وهذه الطائفة غاية فى الخبث ولصوص أشرار، وهم إذا تسلطوا على مكان أصابه منهم بلاء كأنه بلاء الجذام، ولكن منهم من لهم فى الحرب ضراوة وبسالة وهم ذرية هابيل.

وهناك قرية أهلها جميعا من بنى الحرام وأخرى أهلها من بنى جذام، وبين الفريقين اللدد فى العداء والخصومة. ومنهم من يجمع حوله عصابة يغير بها على القرى إما عبورا على الجسور أو بقواربهم. ويتقاتلون ولابد أن تكون الغَلَبَة لأحدهم. أما المغلوبون فيعمل السيف فيهم شيوخا وشبابا، وتبقر بطون نسائهم ويخرجون منها الأجنة ويحرقونها ويقطعون ثدى النساء ويسألنهن عن مالهم المدفون ويعثرون عليه حتما ويستولون على كل أنعامهم ويضرمون النيران فى بلدة المنكسرين ويجعلون مُلكهم خرابا يبابا.

وبعد أن يغتنموا ما يغتنمون من أموال يتغنون بالمواويل ويمرحون فى صخب وضجيج ثم يعودون إلى بلادهم.

أما أصحاب البلدة التى نهبت فيفلسون ويخلو وفاضهم بعد أن أضرمت النيران فيها اللهم عافنا.

إن فلاحى مصر طائفة من قوم فرعون، فهم جبابرة فيهم عنف وفساق وحساد وهذا ما ينبغى أن يُعرف من طباعهم.

ولكن بعد ثلاثة أشهر من قطع النيل ينحسر ماؤه وينثر الفلاحون بذورهم فى الأرض غليظة الطين، ويبدأون فى زراعتها وينشغلون بذلك. وفى ذلك الوقت يطيب الكاشفون

والأمناء والملتزمون نفسا ويهدأون بالا.

وفى شهر بابه وهاتور من السنة القبطية يمضى الكاشفون فى جنودهم لتخضير الولاية أى بذر البذور وبعد شهرين يعودون إلى القاهرة.

ثم يصطحب كل كاشف فرقة من جند الأوجاقات السبعة طبق ما جاء فى قانون السلطان سليم، ويمضى كل كاشف إلى ولايات حاكم جرجا وفى معيته ألف أو ألف وخمسمائة فارس ليباشر مهام منصبه . وكل ملتزم يستعين بأربعين أو خمسين أو مائة من فتيان الترك الأشداء لإحكام سيطرتهم على القرى ومباشرة مهامهم، وعندئذ تبطل سلطات النواب والمسلمين المعينين من قبل الأوجاقات السبعة، ويؤول الأمر والنهى إلى الكاشفين.

وفى أيام فيضان النيل يقبضون على العصاة والمجرمين ممن يغيرون على القرى والقصبات، حتى إذا اختفوا فى حمرهم أو فى قرون ثيرانهم، ويأخذونهم بأشد العقوبة، وباستجوابهم يرشدون عمن سِواهم فيتم القبض عليهم ويسلخون جلودهم أحياء ويقطعون أرجلهم وأيديهم ويستردون منهم كل ما سلبوه من أموال، ثم يقتلونهم جميعا وذلك لصلاح حال العالمين.

فى وصف جرأة جبابرة مصر

ومن عجب أن قُبض ذات مرة على أحد اللصوص من فلاحى مصر بكيفيةٍ ما، وعندما حان وقت إعدامه أعطى الكاشف كيسين أو ثلاثة وبسط إليه الرجاء أن يُخرجه فى موكب وكأنه بك ويمضى به إلى ديوان مصر. وفى التو تسلم الكاشف الأكياس وقَبِل منه رجاءه، وساق الجلادون هذا اللص إلى ميدان توقيع العقوبة وصلبوه وسلخوا جلده من الظهر إلى الصدر ومن الصدر إلى الظهر، وهو حى يدخن التبغ ويتغنى بالموال ويمدح من قبض عليه ومن صلبه ومن قطع يده. وقطع الجلادون أرجله ويديه دون أن يتأوه متألما، وبعد ذلك أتموا سلخ جلده وحشوه تبنا وأركبوا جثته على حمار مغطاة بملابسه ومضوا بها فى موكب إلى ديوان مصر قائلين إنها جثة لص وهذا منظر عجب.

وعلى هذا النحو يُحَصَّل المال السلطانى من كل ما يطير فى الجو ويدب على الأرض ويسبح فى الماء ويسلمونه إلى الباشا ليضيفه إلى الخزانة السلطانية. وهكذا يحصل المال السلطانى من الرعايا الفلاحين.

وهؤلاء الفلاحين قوم حاسروا الرأس حفاة يلبسون القباء واللقاع[1]، غير أنهم ثراة وهم يكدون فى العمل كفرهاد[2].

ولقد نظر الله عز وجل إلى مصر بعين الرحمة ولذا يسمونها أرض الذهب وهم على الحق والصواب فى تسميتها بذلك الاسم، ولقد تكلم العظماء عن مصر فقالوا: «إن نيلها عجب وأرضها ذهب وهى لمن غلب».

وحقا إن من غلب عليها كان له الحكم فيها. وقد حُكمت غِلابا منذ عهد الصديق يوسف. ولم يكن سلاطينها من أهل الحسب والنسب. وأهلها ليسوا أهل المسكنة وجميع جنودها من العصاة الطغاة وهم يحكمون بقوتهم وجبروتهم.

وأصل مقولة أنها تُنبت ذهبا، هو أنهم إذا بذروا فى الأرض كيلة من البذور نبتت محصولا يقدر بعشرين كيلة، وبِيع بدينار من ذهب.

وثمة ميزة لماء نيلها وفولها هى:

أنه إذا شرب منه أحد ولو كان تركيا ثلاثة أعوام أصبح جبارا عتيا، أما نساؤهم فيصبحن غاية فى حسنهن ويذهب حياؤهن. وإذا شربت الخيل من ماء النيل أصبحت جامحة وخرجت إلى صحراء قطية وأم الحسن ولا تبلغ بلدا آخر. أما حُمرها فهى

---

(١) القَبَاءُ: ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص، ويتمنطق عليه. ويقال له أيضًا: القفطان.
واللِّفَاعُ: ما يغطى به الجسد كله كساءً كان أو غيره. والمِلْفَعَةُ اللِّفَاعُ.

(٢) فرهاد هو اسم حفار ونقاش مشهور فى الأدب الفارسى، له قصة حب مأساوية مع من تدعى «شيرين» جارية أرمنية كانت للملك خسرو برويز أحد ملوك الفرس الساسانيين. انظر: حسين مجيب المصرى، فارسيات وتركيات ص٣٩.

سلسة القياد تهملج[1]. وثيرانهم التى تطهر الترع والخلجان تشبه جاموس «أدنه»[2] وهى غاية فى شراستها. وكان الكهنة فى ماضى الزمان يحفرون الخنادق والجداول بمئات الآلاف من هذه الثيران، كما استخدموها كذلك فى حفر الخلجان التى مست الحاجة إلى حفرها.

أسماء الشهور باللغة القبطية

طبق علم الهندسة، قَسّم حكماء الكهنة فى سالف الزمان النيل إلى أقسام . ففى العام تكتسى أرضه أربعة أثواب. وهذه الأقسام الأربعة انقسمت بدورها إلى اثنى عشر شهرا وانقسم كل قسم إلى ثلاثة أشهر، وبذلك يصبح عدد الشهور اثنى عشر.

الفصل الأول:

وأسماء هذا الفصل فى اللغة القبطية هى: أبيب ومسرى وتوت وهذه الأشهر تسمى فى اللغة العربية شهر ذى القعدة وذى الحجة والمحرم، واقتضت حكمة الله أن يوافق شهر توت شهر يوليو على الدوام فى بلاد مصر. ولا تدور هذه الشهور كالشهور العربية. وفى شهر توت يصبح النيل المبارك كأنه البحر طيلة ثلاثة أشهر وتغرق مياهه أراضى مصر وتكتسى حلة حمراء لأنه فى ذلك الوقت يجرى الطين الأحمر القانى فى ماء النيل، وهذه الأشهر الثلاثة هى أشهر الكساد فى مصر.

الفصل الثانى:

أما هذا الفصل فهو الشهور المسماة «بابه وهاتور وكهيك». وتسمى فى اللغة العربية صفر وربيع الأول وربيع الآخر، وفيها ينحسر ماء النيل عن كل الأراضى فى مصر وتصبح هذه الأراضى طينة فى سواد المسك والعنبر الخالص، ويصبح ماء النيل كماء الورد المصفى. ويشرع الفلاحون يزرعون هذا الطين المتخمر بيد القدرة. وفى هذا

(١) هملجت الدابة: سارت سيراً حسنًا فى سرعة.

(٢) أدنه أو أطنه، مدينة فى الأناضول.

الوقت تكتسى أراضى مصر حلة عباسية سوداء. وما أن يبذر الفلاحون بذور البرسيم إلا ونمت فى ليلة واحدة فى طول شبر فترعى الأنعام فيه وتسمن أجسامها.

ثم تخلع مصر بزروعها الحلة العباسية السوداء وتكتسى قباء أخضر من زمرد ويعود إليها شبابها وترتد إلى الناس أرواحهم.

وفى هذا الوقت يشتد الشتاء فى بلاد الترك، أما فى مصر فيكون الربيع فى أوله وتخرج الجياد إلى المراعى.

الفصل الثالث:

وهو «طوبة وامشير وبرمهات» وهذه الأشهر تسمى فى العربية جمادى الأول وجمادى الآخر ورجب، وتخلع أراضى مصر حلتها المخملية الخضراء وتلبس خلعة فاخرة كالزعفران الأصفر وتصبح وكأنها ذهب إبريز، وتصبح جميع الزروع وكأنها تنثر الجواهر وهذا الوقت وقت البيدر، ووقت تحصيل المال السلطانى وقدره اثنتى عشرة خزانة وتحصل كذلك خزائن الأوقاف. إنه موسم الحصاد.

الفصل الرابع:

وهو أشهر برموده وبشنس بؤونه أى أشهر شعبان ورمضان وشوال وفى هذه الأشهر الثلاثة يكون موسم الحصاد وتصبح الأرض صفراء كأنها الذهب، ويصدق القول بأن نيلها عجب وأرضها ذهب. وتسابق جميع الماشية والدواب إلى البيادر وتأكل الماشية كل الأعشاب، ثم تكتسى أرض مصر حلتها العباسية السوداء ثانية ويجرى النيل كما قدر الله له أن يجرى، وهو على تلك الحال إلى أبد الآبدين، ويالها من حكمة إلهية عجيبة والدهر يدور ويدور على هذا من حاله. وشهورنا هى التى تدور أما الشهور القبطية فلها الثبات. تلك أحوال الدنيا ولا وجود لجو مثل جو مصر.

ذكر مضار ماء النيل

كثر القيل والقال فيما يتعلق بالنيل، غير أن هناك حديث نبوى شريف مؤداه أن النيل نهر من أنهار الجنة.

حقا إنه ماء الجنة وله لذة جعلها الله لماء قلعة بلاد الترك أو لماء أربعين عينا فى اسطنبول. والنيل وإن لم يمتزج ماؤه من منبعه إلى مصبه بماء نهر آخر فإنه يتشعب إلى شعب، وهذا وارد فى جميع كتب التواريخ وكتب علم الهيئة، ولكن له طبيعة الامتصاص. وعندما تسقط النقطة ويبدأ النيل الفيضان تجرى مياهه مخضوضرة طيلة شهر بتمامه، وعندئذ ينبغى على الذواقة التحرز من شرب مائه وإذا ما لزم شربه فينبغى أن يقطر ويغلى مع العلك[1] وبذلك يمكن شربه أو يمضى شرق مدينة القاهرة على مقربة من مدينة عين شمس، حيث البئر التى حفرتها السيدة مريم أم المسيح عيسى عليه السلام، ليشرب من مائها الطيب الذى يشبه ماء الحياة وذلك بفضل معجزة عيسى عليه السلام.

وسبب جريان مياه النيل مخضوضرة طيلة شهر بتمامه، والسبب فى كونه مضرا كذلك، هو: أن هذه المياه ركدت فى الخلجان والترع منذ العام المنصرم وقد اختلطت بحشرات وحيوانات سامة مثل العقارب والأفاعى والحيات وذلك من شدة الحر، وعندما تدخل مياه الفيضان آلاف البحيرات تكتسح أمامها المياه المسمومة وتخرجها وبذلك يجرى ماء النيل فى القاهرة أخضر اللون. ومن شرب منه تورمت قدمه أو سائر جسده أو تورمت خصيته، وإذا ما حملت زوجته ولدت طفله مصابا بالجذام.

وينبغى شدة الاحتراز ويشرب الماء من الأسبلة طيلة شهر بتمامه.

وماء النيل عظيم النفع للحصان والمرأة. ولكن بما أن مصر مملكة الفراعنة فإن جوها يجعل الناس جبابرة عتاة متكبرين، وهم سريعو الغضب والملل، ولا يدوم لهم السرور لأن أرزاقهم تعتمد على أوقاف الله.

وكم من خواص وميزات للنيل إلا أننا اكتفينا بهذا القدر الذى ذكرناه.

***

(١) العلك : اللبان. وهو كل صمغ يعلك- يعنى يمضغ - فلا يسيل من لبان وغيره.